الفصل الأول

تحت الرماد

عام ألفين ومئتين واثنين وتسعين.

وقف الدكتور شوكت عرفة على حافة الحفرة الثالثة، ويده تمسك بحافة الخوذة الواقية أكثر مما ينبغي. تحت قدميه امتد فراغ أسود عميق، محفور في أرضٍ كانت يوماً ما مدينة، ثم صارت رماداً، ثم صارت طبقات من التراب المشع الذي لم يعد مشعاً بعد ثلاثة قرون. الرياح الجافة حملت ذرات الغبار الناعم وضربت وجهه، فأغلق عينيه لحظة، ثم فتحهما من جديد.

لم يكن هناك صوتٌ غير صوت الآلات الثقيلة التي تحفر في الأسفل، وصوت الريح التي تعوي بين بقايا الجدران المتداعية. لا طيور. لا حشرات. لا حتى صوت قطةٍ تموء من بعيد. العالم أصبح هادئاً إلى درجةٍ مخيفة.

منذ انتهاء الحروب الكبرى، صار السلام هو القاعدة. لغةٌ واحدة، عملةٌ واحدة، حكومةٌ مركزية واحدة تدير ما تبقى من الكوكب. المدن نظيفة، الشوارع واسعة، الهواء مُنقّى، والناس يعيشون أعماراً أطول. لكن شيئاً ما كان ناقصاً. شيئاً لا يستطيع أحدٌ أن يسميه بالضبط. فراغٌ صغير في الصدر، كغرفةٍ خالية في بيتٍ كبير. كانوا يسمونه «الهدوء الأبدي». شوكت كان يسميه باسمه الحقيقي: الفقد.

ـ العمق الآن سبعة وأربعون متراً يا دكتور.

صوت المهندس الشاب صاعداً من الأسفل عبر جهاز الاتصال. شوكت أجاب بصوتٍ هادئ:

ـ استمروا. وأوقفوا الحفر فوراً إذا لمستم أي معدن غير طبيعي.

كان الفريق يعرف لماذا جاء إلى هذه المنطقة بالذات. ثلاث ضربات نووية قديمة ضربت هذه البقعة في أواخر القرن الحادي والعشرين. المنطقة مُحيت من الخرائط الرسمية لعقود، ثم أعيد فتحها للبحث العلمي بعد أن انخفض الإشعاع إلى مستويات آمنة. معظم الفرق كانت تبحث عن تقنيات قديمة أو وثائق حكومية. شوكت وحده كان يبحث عن شيء آخر.

كان مهووساً بما فُقد.

في مكتبه الصغير في العاصمة، كانت الرفوف مليئة بنسخٍ رقمية من مجلات القرن العشرين والحادي والعشرين. مقالات عن التجميد العميق، عن بنوك الحيوانات المنوية للحيوانات المهددة، عن محاولات حفظ القطط والكلاب النفيسة في وحدات تبريد خاصة للأثرياء. كان يقرأ عن القطط السيامية أكثر من غيرها. تلك الأجسام النحيلة، الرؤوس المثلثة، العيون الزرقاء الشديدة، والصوت الذي كان يوصف بأنه «حديث» أكثر مما هو مواء. انقرضت كلها. انقرضت الطيور المغردة، وانقرضت معظم الثدييات الصغيرة، وانقرضت القطط المستأنسة في موجةٍ بطيئة من الأمراض والحروب ونقص الموارد. لم يبقَ سوى كلابٍ معدلة وراثياً للحراسة، وبعض الطيور الآلية التي تغني ألحاناً مبرمجة.

وكان شوكت يحلم، في ليالٍ كثيرة، بصوتٍ لم يسمعه أحدٌ منذ أكثر من مئتي عام.

نزل السلم المعدني ببطء. الهواء في الأسفل كان أبرد، وأثقل. الأضواء الصناعية ساطعةٌ بيضاء، تكشف طبقات الأرض المحروقة: رماد، ثم خرسانة متفتتة، ثم بقايا أسلاك وأجهزة محترقة. ثم، فجأة، شيء مختلف.

ـ دكتور... هنا.

أحد الفنيين أشار إلى جدارٍ معدني نصف مدفون. لم يكن صدئاً كبقية المعادن. كان سليماً تقريباً، وعليه رموزٌ قديمة محفورة بخطٍ دقيق. شوكت اقترب، ووضع يده على السطح. بارد. أبرد مما ينبغي.

ـ هذا ليس جداراً عادياً ـ همس. ـ هذا باب.

فتحوه بحذر على مدى الساعات التالية. خلف الباب امتدت غرفةٌ طويلة مظلمة، جدرانها مبطنة بمادة عازلة لم تعد تُصنع منذ قرون. وفي وسط الغرفة، وحدة معدنية مستطيلة، بحجم تابوت صغير، متصلة بأسلاكٍ رفيعة ونظام تبريد بدائي ما زال يصدر همهمةً ضعيفة منتظمة. مؤشر صغير على جانبها كان يومض بلونٍ أخضر باهت.

ثلاثة قرون... وما زال يعمل.

شعر شوكت بقلبه يتسارع. مدّ يده، ثم سحبها. لم يكن يريد أن يفتحها الآن. ليس أمام الجميع. ليس بهذه السرعة.

وقف ينظر إلى الوحدة وقتاً طويلاً، والفريق ينتظرون أوامره في صمت. في رأسه كانت تدور صورٌ قديمة: قططٌ سيامية في صورٍ بالأبيض والأسود، عيونٌ زرقاء تنظر إلى العدسة بثقةٍ هادئة، أجسامٌ رشيقة تتمدد على وسائد قديمة. عالمٌ كان فيه مكانٌ لكائنٍ صغير يختار من ينام إلى جواره، ويموء عندما يجوع، ويخدش الأثاث لأنه يملك الحق في ذلك.

الآن لم يعد هناك أثاث يُخدش، ولا أحد يموء.

همس شوكت لنفسه، بصوتٍ لا يكاد يسمعه أحد:

ـ ماذا أخفيتِ عنا كل هذه السنين؟

ثم رفع رأسه، ونظر إلى الفريق، وقال بصوتٍ واضح هذه المرة:

ـ لا أحد يلمس هذه الوحدة. أحضِروا أجهزة القياس الكاملة. وأغلقوا المنطقة بالكامل. من هذه اللحظة... هذا المكان تحت إشرافي المباشر.

خرج من الغرفة بخطواتٍ بطيئة. فوقه امتدت السماء الرمادية الهادئة لعالمٍ بلا قطط. وتحت قدميه، في صندوقٍ معدني بارد، كان شيءٌ ما ينتظر أن يُفتح.

شيءٌ صغير.

شيءٌ حيٌّ تقريباً.

شيءٌ قد يعيد إلى العالم صوتَه الذي فقده منذ زمنٍ طويل.

الفصل الثاني

المركز المدفون

نزلوا أعمق.

السلالم المعدنية القديمة كانت تئن تحت أقدامهم، وكأن المعدن نفسه يتذكر الأيام التي كان فيها الناس يصعدون ويهبطون هنا كل يوم. الإضاءة الصناعية التي أحضروها معهم قطعت الظلام إلى شرائح بيضاء حادة، فبدت الجدران كأنها تنزف غباراً ناعماً مع كل خطوة.

كان المركز أوسع مما توقعه أي أحد.

قاعات طويلة متتالية، مبطنة بمواد عازلة لم تعد تُنتج منذ قرون. على الجدران لوحات إرشادية باهتة باللغة القديمة، كلماتٌ عن «الحفظ العميق» و«البنوك الحيوية» و«الحيوانات الأليفة النفيسة». شوكت مرّ بإصبعه على إحدى اللوحات، فسقطت طبقة رقيقة من الغبار كأنها رمادٌ آخر.

التوابيت الزجاجية كانت في كل مكان.

صفوفاً صفوفاً، مرتبة بعناية قديمة. بعضها مكسور، وبعضها سليمٌ من الخارج لكنه مليء بالتراب والحطام. فتحوا واحداً بعد الآخر بحذرٍ شديد. لا شيء. بقايا أنسجة متحجرة، أو مجرد فراغ أسود. في تابوتٍ آخر وجدوا عظاماً صغيرة جداً، ربما لكلب أو لقطة، لكنها لم تكن أكثر من ذكرى بيضاء هشة. الإحباط بدأ يتسلل إلى الفريق مثل البرد.

ـ كلها فارغة ـ همس أحد الفنيين.

ـ أو مات ما بداخلها منذ زمنٍ طويل ـ أضاف آخر.

شوكت لم يرد. كان يسير في المقدمة، مصباحه يقطع الظلام أمامه. كان يعرف أن معظم هذه المراكز قد دُمرت أو نُهبت أو فشلت أنظمتها خلال العقود الأولى بعد الحروب. الاحتمال أن يجدوا شيئاً حياً كان ضئيلاً إلى درجة اليأس. ومع ذلك استمر.

وصلت بهم الممرات إلى جناحٍ جانبي أكثر عزلة. الباب هنا كان مختلفاً: أثخن، محكم الإغلاق، وعليه علامات تحذير قديمة بلونٍ أحمر باهت. استغرق فتحه ساعة كاملة. خلفه امتدت غرفة أصغر، نظيفة بشكلٍ غريب مقارنةً بما سبقها. الهواء فيها كان أبرد، وكان هناك همهمة خافتة منتظمة، كنبضٍ ميكانيكي ضعيف.

في وسط الغرفة وقفت الوحدة المعدنية.

مستطيلة، بحجم تابوت طفل، مصنوعة من سبيكة داكنة لم تصدأ. أسلاك رفيعة تمتد منها إلى جدارٍ جانبي، ومؤشر صغير على أحد جوانبها ما زال يومض بلونٍ أخضر باهت، بطيء كتنفس نائم. نظام التبريد الاندماجي البدائي كان يعمل. منذ ثلاثمائة عام... وما زال يعمل.

الصمت الذي سقط على الغرفة كان أثقل من أي صمتٍ سابق.

اقترب شوكت ببطء. لم يلمسها. اكتفى بالنظر. على الجانب الآخر من الوحدة كانت هناك لوحة صغيرة محفورة بخطٍ دقيق:

وحدة حفظ خاصة – فئة أليفة نفيسة

رقم التسجيل: SIA-7741

حالة: نشطة

.SIA

شعر بشيءٍ يضيق في صدره.

رفع جهاز القياس المحمول ومرّره فوق السطح. القراءات ظهرت على الشاشة بسرعة: درجة حرارة داخلية ثابتة عند سالب مئة وستة وتسعين. نظام تبريد يعمل بطاقةٍ متبقية تُقدَّر ببضعة أشهر فقط. لا تسرب. لا تلف كبير في العزل. شيءٌ ما... ما زال محفوظاً في الداخل.

التفت إلى الفريق. وجوههم شاحبة تحت الأضواء البيضاء.

ـ لا أحد يقترب أكثر من مترين ـ قال بصوتٍ منخفض وحازم. ـ أحضروا كل أجهزة التصوير غير التداخلي. وأغلقوا هذه الغرفة فوراً. لا إشارات لاسلكية. لا ضوضاء. من هذه اللحظة، هذه الوحدة تحت حماية كاملة.

أحد المهندسين الشبان همس، كأنه يخشى أن يسمعه المعدن نفسه:

ـ هل تعتقد أن داخلها...؟

شوكت نظر إلى المؤشر الأخضر الباهت الذي ما زال ينبض ببطء منذ ثلاثة قرون.

ـ لا أعرف ـ أجاب. ـ لكن شيئاً ما رفض أن يموت هنا تحت الرماد. وسنتعامل معه... كأنه حي.

خرج آخر القوم من الغرفة. أُغلق الباب الثقيل خلفهم بهدوء. في الظلام الجزئي الذي بقي، استمرت الهمهمة الخافتة، والمؤشر الأخضر يتنفس وحده، كأن الوحدة المعدنية تنتظر منذ زمنٍ طويل أن يأتي أحدٌ ويفتح عينيها.

الفصل الثالث

الصندوق

لم يفتحوا الوحدة في ذلك اليوم.

ولا في اليوم الذي يليه.

شوكت أصر على ذلك. أمر بنقل أجهزة التصوير غير التداخلي، وأجهزة القياس الطيفي، ووحدات التحكم في درجة الحرارة إلى الغرفة الصغيرة. أغلق المنطقة المحيطة بالكامل، ومنع أي إشارة لاسلكية من الدخول أو الخروج. الفريق عمل في صمتٍ شبه تام، كأن أي صوتٍ عالٍ قد يوقظ شيئاً لا ينبغي إيقاظه بعد.

في الليلة الثالثة فقط، وبعد أن استقرت كل القراءات، وقفوا أمام الوحدة المعدنية.

الضوء الأخضر الباهت ما زال ينبض ببطء. الهمهمة الخافتة مستمرة. شوكت ارتدى القفازات الواقية بنفسه، ووقف أمام اللوحة الجانبية. أصابعه توقفت لحظة فوق لوحة التحكم القديمة.

ـ إذا حدث أي ارتفاع مفاجئ في الحرارة الداخلية... أغلقوا النظام فوراً وأعيدوا التبريد ـ قال بصوتٍ هادئ. ـ لا تجارب. لا استعجال.

ضغط.

صوتٌ ميكانيكي خافت، كتنهيدة معدنية طويلة، خرج من الوحدة. غطاءٌ علوي انزلق ببطء إلى الخلف، كاشفاً عن طبقةٍ شفافة ثانية. خلفها ظهر نظام التبريد الداخلي: أنابيب رفيعة، سوائل زرقاء باهتة تتحرك ببطء شديد، وضبابٌ خفيف يملأ الحيز. وفي الوسط... شكلٌ صغير ملفوف بعناية داخل غشاءٍ واقٍ شفاف.

الجسم لم يكن أكبر من قطٍّ بالغ نحيل. الأطراف مطوية برفق إلى الجسد، الرأس مائل قليلاً إلى الجانب، والذيل ملفوف حول الأرجل الخلفية. الفراء، رغم طبقات الحماية والصقيع الرقيق، بدا قصيراً وكثيفاً في بعض المواضع، وفاتح اللون في الأطراف. لا حركة. لا تنفس ظاهر. فقط شكلٌ ساكن تحت الضوء الأبيض البارد.

أحد الفنيين همس، صوته مكسور:

ـ هذا... ليس بشرياً.

شوكت لم يرد. كان يحدق. جهاز القياس في يده كان يعطي قراءات أولية: نسيج حيواني، بروتينات محفوظة بدرجة عالية من السلامة، هيكل عظمي صغير، وجمجمة ذات شكلٍ مميز. ليس كلباً. ليس أي حيوانٍ معدل وراثياً مما بقي في عصرهم. شيءٌ أقدم. شيءٌ انقرض.

التوتر في الغرفة أصبح ملموساً. أحد العلماء الشبان اقترب خطوة، عينه تلمع بإثارةٍ علمية جافة:

ـ يمكننا أخذ عينة نسيجية الآن. تحليل الحمض النووي سيعطينا الإجابة خلال ساعات.

شوكت رفع يده دون أن يلتفت.

ـ لا.

ـ لكن يا دكتور، الوقت يعمل ضدنا. نظام التبريد قد ينهار في أي لحظة، وإذا انتظرنا...

ـ قلت لا.

التفت أخيراً. عيناه هادئتان، لكن فيهما شيءٌ قاسٍ.

ـ هذا ليس عينة. هذا كائن. أو كان كائناً. لن نقطع منه شيئاً قبل أن نفهم كيف نحافظ عليه حياً إن أمكن. الفحص يتم من الخارج فقط. تصوير طبقي كامل، تحليل طيفي غير تداخلي، ومراقبة مستمرة لدرجة الحرارة. أي اقتراح آخر يُرفض فوراً.

الصمت امتد. بعض الوجوه بدت محبطة، وبعضها مرتبكة. المهندس الشاب الذي تكلم أولاً خفض رأسه. شوكت عاد ينظر إلى الشكل الصغير داخل الغشاء الشفاف.

كان الفراء عند الأذنين يبدو أغمق قليلاً. الرأس مثلث الشكل تقريباً. حتى في سكونه العميق، كان هناك شيءٌ في وضعية الجسد يوحي بالأناقة القديمة التي قرأ عنها في الصور الباهتة. شيءٌ كان الناس يحتفظون به في بيوتهم، ينادونه بأسماء، ويتركونه ينام على وسائدهم.

رفع الجهاز مرة أخرى، ومرره ببطء فوق الجزء العلوي من الجسم. القراءات الجديدة ظهرت على الشاشة. توقف تنفسه لحظة.

العينان مغلقتان تحت طبقة رقيقة من الصقيع. لكن شكل المحاجر... والبنية حولهما... كانت تشير إلى شيءٍ يعرفه جيداً من الصور القديمة.

عيون كانت، لو فُتحت، زرقاء.

أبعد الجهاز ببطء، وكأن أي حركة مفاجئة قد تكسر شيئاً هشاً جداً.

ـ أغلقوا الغطاء الجزئي الآن ـ أمر بصوتٍ منخفض. ـ حافظوا على درجة الحرارة كما هي. لا أحد يدخل هذه الغرفة دون إذني. وابدأوا في إعداد غرفة الإيقاض الاحتياطية... تحسباً.

التفت إلى الفريق مرة أخيرة قبل أن يخرج.

ـ مهما كان ما بداخل هذا الصندوق... فهو آخر ما تبقى من شيءٍ فقدناه منذ زمنٍ طويل. ولن نعامله كاكتشاف علمي فقط.

خرج، وأغلق الباب خلفه بهدوء. في الغرفة الصغيرة، استمر الضوء الأخضر في النبض البطيء، والشكل الصغير الملفوف ظل ساكناً تحت الصقيع، كأنه ينتظر منذ ثلاثة قرون أن يجرؤ أحدٌ على فتح عينيه.

الفصل الرابع

العيون المغلقة

استغرقت التحاليل الخارجية ثلاثة أيام كاملة.

التصوير الطبقي غير التداخلي رسم خريطة دقيقة للهيكل العظمي الصغير: جمجمة مثلثة أنيقة، عمود فقري مرن، أطراف طويلة نسبياً مقارنة بحجم الجسد. التحليل الطيفي كشف عن بقايا صبغات في الفراء تتطابق مع الأنماط القديمة الموثقة في الأرشيفات: لونٌ كريمي فاتح في الجسد، وأطراف أغمق عند الأذنين والوجه والذيل. والحمض النووي، المستخرج من عينة دقيقة جداً أُخذت من شعرة واحدة سقطت داخل الغشاء الواقي، أعطى النتيجة النهائية في صباح اليوم الرابع.

قطة.

سيامية تقليدية.

أنثى.

مكتملة النمو تقريباً وقت التجميد.

وقف شوكت أمام الشاشة الكبيرة في غرفة التحكم المؤقتة، والقراءات تملأ الهواء حوله كأحكامٍ نهائية. خلفه كان الفريق كله صامتاً. لا أحد يتكلم. حتى الأجهزة بدت وكأنها خفضت أصواتها.

ـ مؤكد؟ ـ سأل أحد العلماء أخيراً، صوته أجش.

ـ مؤكد ـ أجاب شوكت. ـ بنسبة تطابق تتجاوز التسعة وتسعين في المئة مع السلالة السيامية التقليدية قبل الانقراض. ليست معدلة. ليست هجينة لاحقة. هي... هي نفسها.

جلس أحد الفنيين على أقرب مقعد، كأنه فقد القدرة على الوقوف. آخر أخرج جهازه الشخصي وبدأ يكتب شيئاً، ثم توقف ونظر إلى شوكت في تردد.

ـ هل نبلغ المقر الرئيسي الآن؟

شوكت لم يجب فوراً. كان ينظر إلى الصورة ثلاثية الأبعاد للشكل الصغير داخل الوحدة. العينان ما زالتا مغلقتين تحت طبقة الصقيع الرقيقة. لكنه كان يستطيع أن يتخيلهما. الزرقة الشديدة التي وصفتها الكتب القديمة. النظرة الواثقة الهادئة التي كانت القطط السيامية تمنحها لمن تختاره.

ـ نعم ـ قال أخيراً. ـ أبلغوهم. لكن بصيغةٍ دقيقة. لا نستخدم كلمة «إحياء» بعد. نقول: اكتشاف وحدة حفظ تحتوي على فرد واحد من نوعٍ منقرض. الحالة: مجمدة بعمق، وسلامة الأنسجة مرتفعة بشكل استثنائي.

الرسالة خرجت.

خلال ساعتين كانت العاصمة على علم. خلال أربع ساعات كانت الشبكة العلمية العالمية كلها تعرف. وبحلول المساء، كان الخبر قد تسرب إلى الدوائر الأوسع.

العالم الذي عاش قروناً بلا قطط... يواجه فجأة خبر عودة واحدة منها.

في الليلة نفسها، وقف شوكت وحده أمام الوحدة المعدنية بعد أن انصرف الجميع. الغرفة باردة وهادئة. المؤشر الأخضر ما زال ينبض ببطئه الأزلي. فتح الغطاء الشفاف جزئياً مرة أخرى، بما يكفي ليرى الشكل الصغير بوضوح تحت الضوء الخافت.

مدّ يده، ثم توقف قبل أن يلمس الغشاء الواقي.

ـ أنتِ آخر واحدة ـ همس. ـ آخر مواءٍ ممكن في هذا العالم.

الصمت امتد حوله. في الأعلى، فوق مئات الأمتار من التراب والرماد، كانت المدن الهادئة تضيء أضواءها الاصطناعية، والناس يتلقون الخبر على شاشاتهم بدهشةٍ باردة أو بفضولٍ علمي جاف. بعضهم رأى فيه إنجازاً تقنياً. بعضهم رآه تهديداً لنظامٍ استقر طويلاً بلا حيوانات أليفة. وقلة قليلة فقط شعرت بشيءٍ أعمق: حنينٌ غامض إلى دفءٍ صغير كانوا قد نسوا أنهم فقدوه.

شوكت أغلق الغطاء برفق.

ـ لن نفتح عينيكِ بعد... حتى نكون مستعدين لحمايتهما.

خرج من الغرفة، وأغلق الباب خلفه. في الظلام الجزئي الذي بقي، استمرت القطة المجمدة في سباتها الطويل، عيناها مغلقتان على سرٍّ أزرق لم يره بشرٌ منذ أكثر من مئتي عام.

وفوق الرماد، بدأ العالم كله ينتظر لحظة الاستيقاظ.

الفصل الخامس

الإيقاظ

استغرقت عملية الإذابة أحد عشر يوماً.

لم يكن أحد يريد الاستعجال. شوكت رفض أي اقتراح برفع درجة الحرارة بسرعة، حتى لو كان ذلك يعني انتظاراً أطول. بنوا حول الوحدة غرفةً معقمة صغيرة، وربطوا أنظمة التحكم الدقيقة بكل أنبوب وكل مستشعر. الحرارة ارتفعت بمقدار جزء من الدرجة كل بضع ساعات. الصقيع الذي كان يغطي الغشاء الواقي بدأ يذوب ببطء شديد، كأنه يتخلى عن حمايته على مضض.

في اليوم السابع ظهرت أول علامة حياة غير مرئية: تغير طفيف في النشاط الكهربائي للأنسجة. في اليوم التاسع بدأ القلب الصغير ينبض نبضةً واحدة كل دقيقة تقريباً، ضعيفة وغير منتظمة. وفي صباح اليوم الحادي

عشر، عندما كانت درجة الحرارة الداخلية قد اقتربت من المستوى الطبيعي، أمر شوكت بإزالة الغشاء الواقي بالكامل.

القطة كانت مستلقية على جانبها داخل الحوض المعقم. جسدها نحيل، فراءها الكريمي باهت قليلاً بسبب الجفاف الطويل، والأطراف الداكنة تبدو أغمق تحت الضوء الأبيض. لم تتحرك. شوكت ارتدى القفازات الرقيقة ووقف إلى جوار الحوض، بينما راقب الباقون من خلف الزجاج.

ـ الآن ـ همس لنفسه.

مرّر إصبعاً برفق شديد على جانب الرقبة، يبحث عن النبض. وجده. ضعيفاً، لكنه موجود. ثم وضع يده على القفص الصدري الصغير. صعود وهبوط طفيف. تنفس.

مرت دقائق طويلة بلا أي حركة أخرى. ثم ارتعشت الأذن اليمنى مرة واحدة. ثم اليسرى. الرأس مال ببطء شديد إلى الجانب، كأن ثقلاً كبيراً يمنعها من الرفع. والجفون... ارتجفت.

فتحت عيناها.

زرقاوان.

زرقة شديدة صافية، غير معتادة على الضوء، تضيء للحظة ثم تضيق الحدقتان بسرعة. نظرت إلى السقف الأبيض أولاً، بلا تركيز. ثم تحركت العينان ببطء نحو الجهة التي يقف فيها شوكت. ثبتت النظرة عليه لثوانٍ طويلة. لا خوف واضح بعد. فقط دهشة بدائية، وضعف، وشيء يشبه التساؤل الصامت.

حاولت رفع رأسها. فشلت. الساقان الأماميتان ارتعشتا في محاولة ضعيفة للحركة، ثم استسلمتا. أصدرت صوتاً خافتاً جداً من حلقها، ليس مواءً بعد، بل زفيراً مبحوحاً كأنها تتذكر كيف يُستخدم الصوت.

شوكت لم يتحرك. اكتفى بالبقاء في مكانه، يداً واحدة مستندة إلى حافة الحوض، والأخرى مرفوعة قليلاً في الهواء كإشارة سلام صامتة.

مرت ساعة. القطة أغمضت عينيها مرتين أو ثلاثاً من الإرهاق، ثم فتحتهما من جديد. في المرة الأخيرة بدت أكثر تركيزاً. نظرت إلى يد شوكت المرفوعة، ثم إلى وجهه، ثم حولها إلى الجدران البيضاء والأضواء. بدأت رائحة المكان الغريبة تصل إلى أنفها. ارتعش أنفها الصغير. حاولت الشم، فاهتز جسدها كله من الجهد.

ثم حدث الصوت.

ضعيف في البداية، مكسور، كأنه يخرج من مكان بعيد جداً داخلها. مواء واحد قصير، حاد قليلاً في نهايته، يشبه الشكوى أكثر مما يشبه النداء. تردد في الغرفة المعقمة كأنه صوت قادم من قرنٍ آخر.

تجمد كل من كان خلف الزجاج.

أحد الفنيين رفع يده إلى فمه دون أن يشعر. عالمة شابة أجهشت بالبكاء بصمت. شوكت نفسه شعر بشيءٍ ينقبض في صدره بقوة، كأنه سمع اسماً قديماً كان قد نسيه.

القطة مواءت مرة ثانية، أضعف هذه المرة، ثم مدّت رقبتها نحو يد شوكت التي ما زالت مرفوعة. لم تلمسها. فقط اقتربت بأنفها قدر ما تستطيع، وشمت الهواء القريب من القفاز.

شوكت أنزل يده ببطء شديد حتى صارت على مسافة سنتيمترات من رأسها. لم يلمسها بعد. انتظر.

القطة رفعت رأسها بصعوبة، وفركت جانب وجهها مرة واحدة ضعيفة ضد أصابعه المغطاة بالقفاز. ثم تنهدت تنهيدةً صغيرة، وأغمضت عينيها الزرقاوين من جديد، منهكة.

أول مواءٍ يسمعه بشر منذ أجيال كان قد حدث.

وأول لمسة، حتى لو كانت عبر قفاز، كانت قد حدثت أيضاً.

شوكت وقف مكانه وقتاً طويلاً بعد أن نامت القطة من الإرهاق. خلف الزجاج كان الفريق ما زال صامتاً. وفي مكان ما داخل صدره، كان شيءٌ قديم وبسيط قد بدأ يتحرك من جديد: شعورٌ بأن العالم، رغم كل ما فقده، لم يعد فارغاً تماماً كما كان بالأمس.

الفصل السادس

النمو والدهشة

الأسابيع الأولى كانت بطيئة كالتنفس بعد غرق طويل.

القطة لم تستعد قوتها دفعة واحدة. في الأيام الأولى كانت تنام معظم الوقت، تستيقظ لدقائق قليلة فقط لتشرب بضع قطرات من المحلول المغذي أو لترفع رأسها وتنظر إلى الجهة التي يقف فيها شوكت. عيناها الزرقاوان ما زالتا تضيقان من الضوء، وجسدها النحيل يرتجف أحياناً دون سبب واضح. لكنها كانت حية. وكانت تزداد حياة مع كل يوم.

شوكت نقل سريره الصغير إلى الغرفة المجاورة للمختبر. نام هناك معظم الليالي، يستيقظ عند أي صوت خافت. كان يراقب الشاشات حتى ساعة متأخرة، ثم يدخل بهدوء ليتأكد من أن التنفس ما زال منتظماً، وأن الحرارة ثابتة، وأن الفراء بدأ يستعيد بعض لمعانه القديم. الفريق كان يتناوب، لكن أحداً لم يعترض على وجوده الدائم. كانوا يرون ما يراه: هذا لم يعد مجرد اكتشاف علمي.

في الأسبوع الثاني بدأت تمشي.

خطوات قصيرة مترددة في البداية، على بطانية معقمة فرشوها لها. تسقط أحياناً على جنبها، ثم تنهض بصعوبة، وتهز رأسها كأنها تلوم جسدها على ضعفه. شوكت كان يجلس على الأرض بعيداً متراً واحداً، لا يقترب أكثر مما تسمح به هي. في أحد الأيام اقتربت منه بنفسها. شمت حافة ساقه، ثم فركّت رأسها مرة واحدة ضد ركبته، وأصدرت صوت مواءٍ قصير أجش. كان أصفى من المرة الأولى.

العالم كان يتابع.

البث كان محدوداً جداً: صور ثابتة كل بضع ساعات، ومقاطع فيديو قصيرة لا تتجاوز الثلاثين ثانية، تُنشر بإذن شوكت شخصياً. لا أسماء للفريق. لا تفاصيل عن الموقع. فقط القطة. الناس في المدن الهادئة كانوا يتوقفون أمام الشاشات العامة، يشاهدون الجسد النحيل وهو يحاول الوقوف، والعينين الزرقاوين وهي تنظران إلى الكاميرا بدهشةٍ باردة. بعضهم بكى. بعضهم سخر من العاطفة الزائدة. ومعظمهم ظل صامتاً، كمن يرى شيئاً كان يعتقد أنه لن يراه أبداً.

في الأسبوع الثالث اختارت هي مكانها المفضل: الزاوية القريبة من الكرسي الذي يجلس عليه شوكت أثناء المراقبة. كانت تأتي، تقفز بصعوبة إلى الطرف، وتلتف حول نفسها، ذيلها الداكن يغطي أنفها. إذا تحرك هو، فتحت عيناً واحدة وراقبت، ثم أغمضتها من جديد إذا لم يبتعد كثيراً.

في إحدى الليالي، بينما كان يراجع التقارير، رفعت رأسها فجأة ونظرت إليه طويلاً. ثم مواءت. الصوت هذه المرة كان أوضح، فيه شيء من الإلحاح. قام وأحضر لها الطعام. أكلت ببطء، ثم عادت إلى مكانها، ومدت إحدى قدميها الأماميتين حتى لمست طرف حذائه.

شوكت جلس على الأرض هذه المرة، ظهره إلى الحائط. مد يده ببطء. هي شمتها، ثم رفعت رأسها وفركت ذقنها ضد أصابعه العارية. للمرة الأولى بلا قفاز.

ـ تحتاجين اسماً ـ همس.

فكر طويلاً. الأسماء القديمة التي كانت تُطلق على القطط السيامية بدت بعيدة جداً عن هذا الزمان. فكر في «نيل»، ثم في «آخرة». لكنه ظل يعود إلى اللون الذي رآه أول ما فتحت عينيها.

ـ زرقاء ـ قال أخيراً بصوتٍ خافت. ـ هل يناسبكِ؟

القطة لم ترد طبعاً. لكنها مدت رأسها أكثر في راحة يده، وأصدرت صوت خرخرةٍ ضعيفة متقطعة، كأنها تتدرب على شيءٍ كانت قد نسيته.

شوكت ابتسم للمرة الأولى منذ أشهر.

في الخارج كان العالم ما زال يناقش، ويحلل، ويطلب المزيد من الصور. أما هنا، في الغرفة الهادئة المعقمة، فكان رجل وقطة قد بدآ، ببطء شديد، يصنعان شيئاً لم يعد له اسم في قواميس عصرهم: رفقة.

الفصل السابع

الظاهرة

بحلول الأسبوع السادس كانت زرقاء قد صارت اسماً يُعرف في كل مدينة.

الصور المحدودة التي سمح شوكت بنشرها انتشرت أبعد مما توقع. الناس الذين نسوا كيف يبدو كائن صغير يختار مكان نومه كانوا يتوقفون أمام الشاشات العامة دقائق طويلة. الأطفال الذين لم يروا في حياتهم سوى الكلاب المعدلة والطيور الآلية كانوا يسألون آباءهم بصوتٍ خافت: «هل هي حقيقية؟». والعلماء الذين أمضوا حياتهم في دراسة الانقراضات كانوا يكتبون تقارير طويلة عن سلامة الحمض النووي وإمكانية إعادة السلالة.

ثم بدأت الطلبات.

أولاً جاءت من المجلس العلمي الأعلى: عرض عام محدود، تحت ظروف معقمة، لـ«تعزيز الوعي العام بقيمة الحفظ الحيوي». ثم جاءت طلبات من شبكات البث العالمية لتصوير وثائقي طويل. ثم جاءت الرسالة الأخطر: مقترح رسمي بدراسة إمكانية الاستنساخ، وأخذ عينات كافية لإنشاء خط خلوي دائم، «لحفظ النوع من الانقراض النهائي».

شوكت قرأ كل الرسائل بنفسه. رد على معظمها بجملة واحدة قصيرة:

«زرقاء ليست مادة بحثية. هي كائن حي فرد، ولن تُعامل بغير ذلك.»

الغرفة التي كانت في البداية مختبراً مؤقتاً صارت أشبه بقلعة صغيرة. الفريق قلّص عدد الدخول والخروج. الكاميرات الداخلية أُغلقت إلا ما يسمح به شوكت شخصياً. وزرقاء، التي بدأت تستعيد رشاقة جسدها النحيل، صارت تتجول بحرية أكبر داخل المساحة المخصصة لها. كانت تقفز على الطاولة المنخفضة، تجلس ساعات طويلة أمام النافذة الاصطناعية التي تعرض صورة سماء رمادية هادئة، وإذا سمع صوت غريب من الخارج عادت بسرعة إلى الزاوية القريبة من كرسي شوكت.

في أحد الاجتماعات الافتراضية مع اللجنة العلمية، رفع أحد الأعضاء صوته:

ـ هذا الاكتشاف ملك للبشرية جمعاء. ليس من حقك أن تحتفظ به لنفسك.

شوكت نظر إلى الصورة الصغيرة لزرقاء على الشاشة الجانبية. كانت نائمة، رأسها على قدمه التي مدها تحت الطاولة.

ـ هي ليست «هـ» ـ أجاب بهدوء. ـ وهي ليست ملكاً لأحد. إذا أردتم الحديث عن حقوق، فلنبدأ بحقها هي في أن تعيش دون أن تتحول إلى عرض أو مشروع استنساخ.

الصمت الذي تلا كلامه كان طويلاً. أحدهم همس أن العاطفة تؤثر على حكمه العلمي. آخر قال إن الفرصة قد لا تتكرر. شوكت أنهى الاتصال دون أن يرفع صوته.

في تلك الليلة جلس على الأرض كما يفعل منذ أسابيع. زرقاء جاءت بنفسها، دارت دورة واحدة حول نفسها، ثم استلقت على جانبها ومدت قدمها الأمامية حتى لمست يده. خرخرت. الصوت صار أوضح الآن، أعمق قليلاً، يشبه هديلاً بعيداً أكثر مما يشبه أي صوتٍ آخر في عالمهم.

ـ يريدونكِ للجميع ـ همس وهو يمرر إصبعه برفق بين أذنيها. ـ وأنا لا أستطيع أن أعطيهم إياكِ.

زرقاء فتحت عيناً زرقاء واحدة، نظرت إليه لحظة، ثم أغمضتها من جديد ودفنت أنفها في راحة يده.

خارج المختبر كان العالم ينقسم. مقالات تكتب عن «الحق الجماعي في المعرفة»، وأخرى عن «كرامة الكائن الأخير». صور زرقاء تُطبع على ملابس وتُعرض في نوافذ المحلات. وبعض الناس، في المدن البعيدة، بدأوا يضعون على أبواب بيوتهم صوراً قديمة لقطط سيامية، كأنهم يستعيدون ذكرى كانوا قد دفنوها.

أما هنا، في الغرفة الهادئة، فكان الزمن يمشي بوتيرة مختلفة. قطة تستعيد حياتها ببطء، ورجل يحرسها كأنها آخر دفءٍ تبقى له في عالمٍ نظيف وبارد ومنظم... وفارغ.

الفصل الثامن

الرفقة

بعد ثلاثة أشهر من الاستيقاظ، انتقلت زرقاء إلى مسكن شوكت الخاص.

لم يكن الانتقال سهلاً. اللجنة العلمية رفضت في البداية، ثم وافقت بشروط صارمة: المراقبة المستمرة عن بُعد، تقارير يومية، ومنع أي زيارات غير مصرح بها. شوكت وافق على كل شيء مقابل أن تخرج من المختبر المعقم إلى مكانٍ فيه نوافذ حقيقية وأرضية دافئة وهواء لا يشبه هواء المستشفيات.

المنزل كان صغيراً، في طرف المدينة الهادئة، يطل على مساحة مفتوحة من الأرض الجرداء التي لم تنبت فيها أشجار منذ عقود. زرقاء استكشفته ببطء. مشت على أطراف أصابعها أول يوم، تشم كل زاوية، ترفع رأسها إلى النوافذ، ثم عادت وجلست عند عتبة غرفة المكتب تنتظره.

منذ تلك الليلة صارت التفاصيل الصغيرة هي كل شيء.

كانت تنام على أوراقه.

في الصباح يجدها مستلقية فوق التقارير المفتوحة، ذيلها الداكن يغطي نصف الصفحة، ورأسها مائل على جانب الجهاز اللوحي. إذا حاول سحب الورقة من تحتها فتحت عيناً واحدة ببطء، نظرت إليه نظرة لوم هادئة، ثم أغمضتها من جديد كأنها تقول: انتظر.

تموء عندما تجوع.

الصوت صار واضحاً الآن، فيه نبرة إلحاح مميزة. تأتي إلى باب المطبخ، تجلس، وترفع رأسها إليه. إذا تأخر، ارتفع الصوت قليلاً وصار أشبه بشكوى. شوكت كان يضحك أحياناً دون صوت، ثم يحضر لها الطعام ويجلس على الأرض يراقبها وهي تأكل بتركيزٍ أنيق.

ترفض بعض الزوار.

عندما جاء أحد أعضاء اللجنة في زيارة تفقدية قصيرة، دخلت زرقاء إلى الغرفة المجاورة ولم تخرج حتى غادر الرجل. عندما جاءت العالمة الشابة التي بكت يوم الاستيقاظ، اقتربت زرقاء منها وفركت رأسها ضد ساقها مرة واحدة. كانت تختار. بوضوح.

أما هو... فكانت تختار الجلوس إلى جواره دون غيره.

في المساء، بعد أن ينتهي من عمله، تأتي. تقفز إلى الطرف الآخر من الأريكة، أو تصعد إلى حضنه إذا كان جالساً على الكرسي المنخفض. تلتف، تضع رأسها على ذراعه، وتبدأ الخرخرة العميقة الهادئة التي صارت تملأ المنزل أكثر مما تملأه أي موسيقى. أحياناً تمد قدمها الأمامية وتضع مخلبها برفق على ظهر يده، كأنها تتأكد أنه ما زال هناك.

شوكت بدأ يتغير.

كان يلاحظ ذلك في التفاصيل. صار يترك النافذة مفتوحة قليلاً في الصباح لأنها تحب الهواء المتحرك. صار يؤخر موعد نومه إذا كانت مستيقظة وتريد اللعب بخيطٍ أو كرة صغيرة. صار يتكلم معها بصوتٍ عادي، يخبرها عن يومه، عن الاجتماعات المملة، عن المقالات التي تُكتب عنها في الخارج. هي لا ترد طبعاً، لكنها ترفع أذنها أحياناً أو تلتفت إليه كأنها تستمع.

في إحدى الليالي استيقظ فوجدها جالسة على حافة السرير، تنظر إلى النافذة. القمر الاصطناعي كان يضيء الخارج بضوءٍ أبيض باهت. مد يده ولمس ظهرها. التفتت، مواءت مواءً قصيراً ناعماً، ثم زحفت اقتربت ونامت تحت ذقنه مباشرة.

ظل مستيقظاً وقتاً طويلاً بعد أن نامت.

فكر في العالم الخارجي: المناقشات التي ما زالت مستمرة، الطلبات التي تصل كل أسبوع، الأصوات التي تقول إن «هذا الكائن يجب أن يكون للجميع». ثم نظر إلى الرأس الصغير النائم تحت ذقنه، والفراء الدافئ، والنفس الهادئ الذي يرتفع وينخفض ضد رقبته.

ابتسم في الظلام.

للمرة الأولى منذ سنوات طويلة، لم يشعر بأن المنزل فارغ.

كان هناك مواء ينتظره في الصباح، ووزن خفيف على الأوراق، وعينان زرقاوان تختاران الجلوس إلى جواره دون سواه.

وكان ذلك يكفي.

الفصل التاسع

الأسئلة الصعبة

الاجتماع عُقد في القاعة الكبرى للمجلس العلمي الأعلى.

كانت القاعة دائرية، جدرانها بيضاء ناصعة، والطاولات مرتبة على شكل هلال كبير. الشاشات المحيطة تعرض صوراً حية لزرقاء من منزل شوكت: هي نائمة على الأريكة في إحدى الزوايا، ذيلها يغطي أنفها، وجسدها يرتفع وينخفض بانتظام هادئ. الصورة كانت تذكيراً مستمراً بأن الحديث ليس عن نظرية، بل عن كائن حي يتنفس في هذه اللحظة.

شوكت جلس في المقعد المخصص له. لم يلبس البذلة الرسمية التي ارتداها معظم الحضور. جاء بملابسه العادية، كأنه جاء من المنزل مباشرة. على الشاشة الصغيرة أمامه كانت زرقاء ما زالت نائمة.

بدأ الحديث بهدوء، ثم ارتفعت الأصوات تدريجياً.

العالم الأول، رجل مسن ذو صوتٍ واثق، قال:

ـ لدينا فرصة لا تتكرر. الحمض النووي سليم بنسبة استثنائية. يمكننا خلال سنوات قليلة أن نعيد السلالة. ليس واحدة... بل عشرات. نعيد التوازن الذي فقدناه.

امرأة أخرى، متخصصة في الأخلاقيات الحيوية، ردت فوراً:

ـ أي سلالة؟ تحت أي ظروف؟ هل نخلق كائنات لتعيش في مختبرات؟ أم نطلقها في بيئة لم تعد تصلح لها منذ قرون؟ نحن لا نملك الحق في إعادة نوعٍ فقط لأننا نستطيع.

صوت ثالث ارتفع من الطرف الآخر:

ـ هذا ليس عن الحق. هذا عن المسؤولية. زرقاء هي آخر فرد. إذا ماتت دون أن نأخذ عينات كافية، نكون قد سمحنا بانقراضٍ نهائي كان يمكن منعه. التاريخ لن يغفر لنا هذا التردد.

المناقشات تفرعت. بعضهم أراد خطّاً خلوياً دائماً. بعضهم اقترح برنامجاً محدوداً للاستنساخ مع ضمانات صارمة. آخرون رفضوا أي تدخل، وقالوا إن احترام كونها «الأخيرة» هو الموقف الأخلاقي الوحيد. وكلما طال النقاش، كانت العيون تلتفت إلى شوكت أكثر.

أخيراً توجه إليه رئيس الجلسة:

ـ دكتور شوكت... أنت الأقرب إليها. ما رأيك؟

صمت بضع ثوان. على الشاشة الجانبية تحركت زرقاء قليلاً في نومها، مدت قدمها، ثم استقرت من جديد.

ـ رأيي بسيط ـ قال بصوتٍ هادئ لم يرتفع. ـ هي ليست مورداً. وليست مشروعاً. هي كائن واحد يعيش الآن. كل خطة تتحدث عن «السلالة» أو «الخط الخلوي» تتعامل معها كوسيلة. وأنا رفضت ذلك منذ اليوم الأول.

ـ لكن العلم... ـ بدأ أحدهم.

ـ العلم أخذ كفايته ـ قاطعه شوكت دون حدة. ـ صور، تحاليل، قراءات، تقارير أسبوعية. أما الباقي... فحياتها. إذا قررتم الاستنساخ، ستفعلون ذلك بعد أن تموت، ومن عينات أوافق أنا على أخذها بشروطها. أما وهي حية... فلن أسمح أن تتحول أيامها إلى سلسلة من الإجراءات.

صمت ثقيل سقط على القاعة. بعضهم بدا غاضباً. بعضهم مطأطئ الرأس. امرأة في الصف الخلفي همست لجارها: «لقد تعلق بها أكثر مما ينبغي».

رئيس الجلسة أنهى الاجتماع بعد ساعة إضافية من الجدل العقيم. لم يُتخذ قرار نهائي. أُرجئ الأمر إلى جلسة أعلى. لكن الرسالة كانت واضحة: الضغط لن يتوقف.

في طريق العودة جلس شوكت في المركبة الصامتة ينظر من النافذة. المدن الهادئة تمر بجانبه، أضواؤها منتظمة، شوارعها نظيفة، ناسها يمشون بخطواتٍ هادئة مدروسة. عالم بلا فوضى. عالم بلا مواء.

عندما فتح باب المنزل كانت زرقاء في انتظاره عند العتبة. رفعت رأسها، مواءت مرة واحدة قصيرة، ثم تقدمت وفركت جانبها ضد ساقه بقوة هذه المرة، كأنها تشعر بما يحمله.

جلس على الأرض. جاءت وصعدت إلى حضنه مباشرة، دارت دورة، واستقرت. بدأ يمرر يده على ظهرها ببطء. هي خرخرت، ثم مدت مخلبها ووضعته على صدره.

ـ يريدون نسخكِ ـ همس في الفراء الدافئ. ـ يريدون أن يجعلوا منكِ بداية لشيء آخر. وأنا... لا أعرف إن كنتُ قادراً على منعهم إلى الأبد.

زرقاء رفعت رأسها ونظرت إليه بعينين زرقاوين واسعتين في ضوء المصباح الخافت. ثم دفنت أنفها تحت ذقنه وأغلقت عينيها.

الخرخرة استمرت.

وفي تلك الخرخرة الهادئة كان الجواب الوحيد الذي يملكه الآن: أنها هنا. حية. فرداً واحداً. وأن هذا، في الوقت الحالي، يكفي ليظل يدافع.

الفصل العاشر

المجلس الأعلى

قاعة المجلس الأعلى كانت مختلفة عن كل القاعات التي دخلها شوكت من قبل.

أوسع. أبرد. الجدران مرتفعة بلا نوافذ، والشاشات الكبيرة تعرض صوراً ثابتة لزرقاء من زوايا متعددة في المنزل: هي جالسة على حافة النافذة، هي نائمة على الأوراق، هي تنظر مباشرة إلى إحدى الكاميرات بعينين زرقاوين هادئتين. كأنها حاضرة معهم رغم المسافة.

أعضاء المجلس الاثني عشر كانوا جالسين على منصة مرتفعة قليلاً. وجوه جدية، ملفات مفتوحة، وأعين تراقب شوكت منذ اللحظة التي دخل فيها. لم يطلبوا منه الجلوس فوراً. تركوه واقفاً في وسط الدائرة البيضاء تحت الضوء المباشر.

رئيس المجلس، امرأة في أواخر الستين صوتها هادئ وحاد في آنٍ معاً، بدأت:

ـ دكتور شوكت عرفة. نحن هنا اليوم لاتخاذ قرار بشأن الكائن المعروف باسم «زرقاء». التقارير تشير إلى أنك ترفض بشكل مستمر أي إجراء يهدف إلى حفظ النوع أو دراسة إمكانية إكثاره. نريد أن نسمع مبرراتك... بوضوح.

شوكت نظر إلى أقرب شاشة. زرقاء كانت قد غيرت وضعها، مدت قدمها الأمامية، ثم استقرت من جديد.

ـ مبرري بسيط ـ قال. ـ هي ليست «نوعاً» في هذه اللحظة. هي فرد. فرد واحد يعيش حياته الوحيدة. كل حديث عن الإكثار أو الخط الخلوي يتعامل مع حياتها الحالية كمرحلة انتقالية نحو شيء أكبر. وأنا أرفض أن تكون حياتها مجرد مقدمة.

أحد الأعضاء رفع يده:

ـ هذا الموقف عاطفي. العلم لا يعمل بالعاطفة. لدينا مسؤولية تجاه المعرفة وتجاه الأجيال القادمة. إذا ماتت دون أن نضمن استمرارية المادة الوراثية، نكون قد فرطنا في فرصة تاريخية.

ـ وأنا أسألكم ـ رد شوكت بصوتٍ لم يرتفع لكنه صار أوضح ـ هل نعيد ما فقدناه لنمتلكه... أم لنشاركه؟

الصمت الذي تبع السؤال كان أول صمت حقيقي في الجلسة.

تابع وهو ينظر إلى الوجوه واحداً واحداً:

ـ طوال عقود ونحن نستعيد ما نستطيع من الماضي: تقنيات، بذور، تسجيلات صوتية، صور. دائماً لنسيطر عليه، لنضعه في متاحف أو مختبرات أو قواعد بيانات. هذه المرة لدينا كائن حي يتنفس، يختار أين ينام، يرفض بعض الناس ويقبل بعضهم، يموء عندما يجوع. إذا حولناها إلى مشروع استنساخ وهي ما زالت حية، فنحن لم نشاركها الحياة... نحن استولينا عليها.

امرأة أخرى من الأعضاء مالت إلى الأمام:

ـ وأنت؟ ألست تستولي عليها بطريقتك؟ تحتفظ بها في منزلك، تمنع الزيارات، تقرر وحدك ما يُسمح به وما لا يُسمح؟

شوكت هز رأسه ببطء.

ـ أنا أحرس مساحتها. هذا مختلف. هي تخرج من الغرفة إذا أرادت. ترفض الطعام إذا لم يناسبها. تنام فوق تقاريري رغم أنني أحتاجها. أنا لا أمتلكها. أنا أعيش معها. وهذا كل ما أطلب أن نتركه لها: أن تعيش وتموت كآخر قطة سيامية... لا كأول عينة في برنامج إعادة إنتاج.

رئيس المجلس أغلقت الملف أمامها بهدوء.

ـ قرار المجلس لن يصدر اليوم. سنرفع التوصيات إلى الهيئة التنفيذية. لكن يجب أن تعرف، دكتور، أن رأيك لم يعد الرأي الوحيد الذي يُعتد به. الضغط العام والعلمي يتزايد. وقد نضطر إلى إجراءات... تحفظية.

شوكت نظر مرة أخيرة إلى الشاشة. زرقاء كانت قد استيقظت. جلست، تثاءبت، ثم نظرت مباشرة إلى الكاميرا كأنها تشعر بالعيون الكثيرة التي تراقبها في هذه اللحظة.

ـ افعلوا ما ترونه ـ قال وهو يستدير للمغادرة. ـ أما أنا فسأظل حيث هي. وإذا جاء يوم تقررون فيه أن حياتها أصبحت أقل أهمية من احتمالات المستقبل... فستجدونني ما زلت واقفاً بينها وبينكم.

خرج من القاعة. الباب أغلق خلفه بصوتٍ مكتوم.

في الطريق إلى المنزل كان يفكر في السؤال الذي طرحه، والذي لم يجبه أحد بوضوح: هل نعيد ما فقدناه لنمتلكه، أم لنشاركه؟

عندما فتح الباب كانت زرقاء عند العتبة كالعادة. لم تموء هذه المرة. تقدمت فقط وفركت رأسها بقوة ضد ساقه، ثم نظرت إليه طويلاً بعينين زرقاوين صافيتين.

هو انحنى، رفعها للمرة الأولى منذ أيام، واحتضنها. هي خرخرت ضد صدره مباشرة.

وفي ذلك الصوت الهادئ كان الجواب الذي اختاره لنفسه: المشاركة. حتى لو كان الثمن أن تبقى الأخيرة.

الفصل الحادي عشر

السنوات الهادئة

مرت السنوات ببطء يشبه خرخرةً طويلة.

زرقاء كبرت داخل المنزل المفتوح نسبياً. النوافذ صارت تُترك مفتوحة ساعات أطول، والحديقة الصغيرة الجرداء أمام البيت امتلأت بصناديق رملية وأماكن مشمسة اختارتها هي بنفسها. العالم الخارجي لم يعد يرسل وفوداً كل أسبوع. الاعتياد زحف بهدوء. صارت صورها تظهر بين الحين والآخر في نشرات جانبية: «السيامية الأخيرة ما زالت بخير». الناس ينظرون، يبتسمون أحياناً، ثم يكملون يومهم. الدهشة لم تختفِ تماماً، لكنها صارت أهدى، كجرحٍ قديم يعرف الجميع مكانه.

أما داخل المنزل، فقد صارت جزءاً من كل شيء.

في الصباح كانت تستيقظ قبل شوكت بدقائق. تصعد إلى السرير، تجلس على صدره، وتنتظر حتى يفتح عينيه. إذا تأخر، لمست أنفه برفق بقدمها. هو كان يضحك بصوتٍ منخفض وينهض. هي تمشي أمامه إلى المطبخ، ذيلها مرفوع، كأنها تدلّه على الطريق الذي يعرفه منذ سنوات.

كانت تنام على الأوراق ما زالت، حتى بعد أن صار معظم عمله رقمياً. كانت تموء عند الساعة نفسها تقريباً كل مساء إذا تأخر الطعام. كانت ترفض بعض الضيوف القدامى وتقبل آخرين جدداً بمجرد نظرة. وفي الليالي الباردة كانت تحفر لنفسها مكاناً تحت غطائه وتنام هناك، رأسها تحت ذقنه، ونفسها دافئ ومنتظم ضد رقبته.

شوكت تغير أكثر مما كان يعلن.

صار يتكلم أقل في الاجتماعات. صار يرفض السفر إلا للضرورة. صار يترك عمله في منتصف الجملة إذا جاءت وفركت رأسها ضد ساقه. أصدقاؤه القدامى كانوا يلاحظون، ويبتسمون، ولا يعلقون كثيراً. كانوا يرون الرجل الذي كان مهووساً بما فُقد قد وجد شيئاً صغيراً حياً يملأ الفراغ، ولم يعد يبحث عن المزيد.

في السنة الخامسة بدأت علامات العمر تظهر.

الفراء الذي كان لامعاً صار أرق في بعض المواضع. القفزات إلى الحافة العالية للنافذة صارت أبطأ، وأحياناً تحتاج إلى محاولة ثانية. في الصباح كانت تستغرق وقتاً أطول قبل أن تنهض من مكان نومها المفضل. شوكت لاحظ كل شيء مبكراً. زاد من زيارات الطبيب البيطري السري الذي كان يأتي متنكراً. التحاليل كانت طبيعية في البداية، ثم بدأت تشير إلى تراجعٍ تدريجي في وظائف الكلى، وضعفٍ بسيط في عضلة القلب.

لم يخبر أحداً في الخارج.

كان يجلس معها ساعات أطول. يحملها إلى البقعة المشمسة في الحديقة بدلاً من أن ينتظر قفزتها. يدفئ يديه قبل أن يلمسها في الليالي الباردة. وفي المساء، عندما كانت تخرخر ضد صدره، كان يمرر يده ببطء أبطأ من المعتاد، كأنه يحفظ شكل جسدها تحت أصابعه.

في إحدى الليالي استيقظت فجأة ومواءت مواءً قصيراً ضعيفاً. هو أضاء المصباح فوراً. هي كانت تنظر إليه بعينين زرقاوين ما زالتا صافيتين، لكنها هذه المرة بدتا أبعد قليلاً، كأنها ترى شيئاً آخر غير الغرفة.

ـ أنا هنا ـ همس وهو يقرب وجهه من رأسها. ـ لستِ وحدك.

هي مدت رأسها ولمست أنفه بأنفها مرة واحدة، ثم عادت ودفنت وجهها في عنقه. الخرخرة جاءت متقطعة في البداية، ثم استقرت.

شوكت ظل مستيقظاً حتى الصباح.

خارج النافذة كان العالم يواصل دورته الهادئة المنتظمة. المدن نظيفة، الشوارع واسعة، الناس يمشون بخطواتٍ مدروسة. أما هنا، في المنزل الصغير، فكان الزمن يمشي على وقع أنفاس قطة عجوز، ورجل يعرف أن السنوات الهادئة لن تدوم إلى الأبد... ويحاول أن يعيش كل واحدة منها كأنها الأخيرة.

الفصل الثاني عشر

المواء الأخير

الضعف جاء بهدوء، كظلٍّ يطول في آخر النهار.

زرقاء لم تعد تقفز. كانت تنزل من الأريكة ببطء، تتوقف في منتصف الطريق، ثم تكمل. الطعام الذي كانت تلح عليه في الماضي صارت تترك معظمه. الخرخرة أصبحت أضعف، وأحياناً تنقطع في منتصفها كأنها نسيت كيف تكمل. لكن عينيها الزرقاوين بقيتا صافيتين. وكانت ما زالت تبحث عنه إذا غاب عن الغرفة أكثر من دقائق.

شوكت ألغى كل مواعيده.

نقل سريره إلى الصالة لتكون بجانبه طوال الوقت. كان يحملها إلى البقعة المشمسة في الصباح، يجلس معها على الأرض، ويقرأ بصوتٍ منخفض من الكتب القديمة التي كانت تحب أن تنام على صفحاتها. في الليل كان يبقي المصباح الجانبي مضاءً بدرجة خافتة جداً، لأنها صارت تفزع إذا استيقظت في الظلام التام.

في اليوم قبل الأخير أكلت قليلاً من يده. ثم صعدت بصعوبة إلى حضنه، دارت نصف دورة فقط، واستقرت ورأسها على ذراعه. هو وضع يده على جنبها يشعر بارتفاع وانخفاض التنفس. كان أبطأ من أي وقت مضى.

في الصباح الأخير فتحت عينيها قبل أن يستيقظ.

وجدها تنظر إليه. مدت رأسها ولمست أنفه بأنفها كما فعلت مرات كثيرة من قبل. ثم مواءت.

الصوت كان خافتاً جداً، مكسوراً في نهايته، لكنه كان واضحاً. مواء واحد فقط. كأنها تودّع أو تؤكد أو تطلب شيئاً لا يستطيع أحد أن يعرفه.

هو لم يتكلم. فقط قرب وجهه أكثر وبدأ يمرر يده على رأسها ببطء شديد، من بين الأذنين حتى نهاية الظهر. هي أغمضت عينيها. التنفس صار أبطأ. ثم أبطأ.

ثم توقف.

الخرخرة لم تأتِ هذه المرة. ولا حركة أخرى. فقط الدفء الذي بدأ يغادر جسدها تدريجياً تحت يده.

ظل جالساً هكذا وقتاً طويلاً. لم يبكِ بصوت. فقط بقيت يده تتحرك برفق كأنها ما زالت تشعر بالفراء الحي. عندما رفع رأسه أخيراً كانت الشمس قد ارتفعت، والضوء يملأ الغرفة بهدوءٍ أبيض محايد.

دفنها في اليوم التالي.

اختار مكاناً بسيطاً في طرف الأرض المفتوحة خلف المنزل، حيث ينتهي السور القديم ويبدأ الأفق الرمادي الواسع. حفر بنفسه. لفها في القماش الناعم الذي كانت تحب أن تنام عليه، ووضعها في الأرض برفق كأن أي حركة خشنة قد تؤذيها بعد. غطى التراب بيده، ثم وضع فوقه حجراً واحداً فقط، بلا نقش.

وقف هناك حتى غابت الشمس.

لم يقل شيئاً. لم يُلقِ خطاباً داخلياً عن الفقد أو الذكرى أو معنى أن تكون الأخيرة. فقط وقف، والريح الخفيفة ترفع أطراف شعره، والأفق أمامه فارغ وهادئ وممتد.

عندما عاد إلى المنزل كان المكان نفسه، والأريكة نفسها، والنافذة نفسها. لكن الوزن الخفيف على الأوراق لم يعد هناك. والمواء الذي كان يملأ المساء لم يعد يأتي.

جلس على الأرض في المكان الذي كانت تختاره عادة. وضع يده على البلاط البارد بجانبه، وظل هكذا حتى أظلم كل شيء.

في الخارج كان العالم يواصل دورته الهادئة. أما هنا، في المنزل الذي صار فارغاً من جديد، فقد بقي فقط الصمت... وصوتٌ أخير ما زال يتردد في الذاكرة، خافتاً ومكسوراً وواضحاً: آخر مواء.

الفصل الثالث عشر

ما تبقى

مرّ عام كامل.

المنزل لم يتغير كثيراً من الخارج. النوافذ ما زالت تُفتح في الصباح، والحديقة الصغيرة الجرداء ما زالت هناك، والحجر الواحد في طرف الأرض المفتوحة ما زال في مكانه. لكن الداخل صار أهدأ مما كان حتى في أيام زرقاء الأخيرة.

شوكت عاد إلى عمله تدريجياً. الاجتماعات، التقارير، الرحلات الميدانية القصيرة. الناس كانوا ينظرون إليه بطريقة مختلفة في البداية، ثم اعتادوا. كانوا يعرفون أنه الرجل الذي عاش مع آخر قطة سيامية، والذي دفنها بنفسه، والذي... بعد أسابيع من الصمت... وافق أخيراً على أخذ العينات.

لم يوافق في اليوم التالي لموتها. ولا في الأسبوع الذي يليه. جلس أياماً طويلة ينظر إلى المكان الفارغ على الأريكة، وإلى الحجر في الأفق. ثم في صباحٍ هادئ اتصل بالمجلس الأعلى وقال جملة واحدة فقط:

ـ خذوا ما تحتاجون. بشرط واحد: لا تُعامل النسخ كتعويض عنها. هي انتهت. ما يأتي بعدها شيء آخر.

أخذوا العينات. الحمض النووي كان سليماً بما يكفي. بدأت التجارب ببطء وحذر تحت رقابة صارمة. بعد أشهر ظهرت أولى الأجنة الناجحة. ثم المواليد. قطط صغيرة نحيلة، أطرافها داكنة، وعيونها حين فتحت كانت زرقاء بدرجات متفاوتة من الصفاء. العالم استقبل الخبر بدهشةٍ جديدة هذه المرة، أهدى من الدهشة الأولى. الناس راقبوا الصور، ابتسموا، وكتبوا تعليقات عن «عودة الدفء». بعضهم سمّى قططه الجديدة بأسماء قديمة. وبعضهم وضع صوراً لزرقاء الأصلية إلى جانب الصور الجديدة، كأنه يريد أن يتذكر الفرق.

شوكت لم يحضر أي إعلان. لم يطلب رؤية الصغار. اكتفى بالتقارير التي كانت تصله بين حين وآخر. كان يعرف أنها ليست هي. الجسد قد يتشابه، والصوت قد يقترب، لكن الذاكرة التي كانت تختار الجلوس إلى جواره دون سواه، والخرخرة التي كانت تبدأ في اللحظة التي يضع فيها يده عليها... تلك انتهت مع الحجر في طرف الأرض.

في إحدى الأمسيات عاد إلى المنزل مبكراً. فتح النافذة كما كان يفعل من أجلها. جلس على الأرض في المكان المعتاد. وضع يده على البلاط بجانبه، حيث كان وزنها الخفيف يستقر كل مساء.

الصمت كان كثيفاً. لكنه لم يعد فارغاً تماماً كما كان قبل سنوات طويلة، قبل أن يفتحوا الصندوق المعدني تحت الرماد.

أغمض عينيه.

للحظةٍ قصيرة جداً تخيّل مواءً خافتاً في الطرف الآخر من الغرفة. أو ربما كان فقط الريح تمر عبر النافذة. أو ذكرى صارت جزءاً من الهواء نفسه.

فتح عينيه من جديد. الأفق خارج النافذة كان رمادياً وواسعاً وهادئاً. في مكان ما بعيد، في مختبرات نظيفة، كانت قطط صغيرة تتنفس وتتحرك وتفتح عيوناً زرقاء على عالمٍ لم يعد يخلو تماماً من صوتها.

أما هنا، في المنزل الصغير، فقد بقي ما هو أصدق من النسخ كلها:

سنوات من الرفقة،

مواء أخير،

ورجل يتعلم أن يعيش مع ما تبقى...

بعد أن منح العالم فرصة أن يبدأ من جديد،

دون أن يخون الذكرى التي اختارت أن تنام تحت ذقنه حتى النهاية.

جلس هكذا حتى أظلم المكان تماماً.

ثم نهض، وأغلق النافذة برفق، وذهب إلى سريره.

في الصباح التالي سيكون هناك عمل، وتقارير، وعالم يواصل دورته.
لكن في مكان ما داخل الصدر، كان الحجر الصغير في طرف الأفق ما زال دافئاً...
وكفى.